الصراع بين اللغة العربية والسياسة التعليمية في نيجيريا - ولاية كنونموذجا

د. محمد إنوا ثالث طلحة

التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي نزَّل القرآن، بلسان عربيٍّ مبين، القائل: إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبيِّنا محمد خير من نطق بالضاد، وآله وصحابته الغرِّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللغة العربية عريقة في هذا الإقليم الإفريقي وليست حديثة فيه! إذ إن هناك اتصالاً مزمناً بين القارة الأفريقية وبين جزيرة العرب. وإن الكثير من بلاد العرب جزءٌ لا يتجزَّأ عن هذه القارة الميمونة. فقد أثبت التاريخ أن هناك علاقة تجارية بين قريش وبين بلاد الحبشة، ومما لا شك فيه أن هذه العلاقة كانت قبل مجئ الإسلام، ولعل هذا هوالسبب الذي جعل الهجرة الأولى في الإسلام هي الهجرة إلى الحبشة[١].

ودولة نيجيريا، هذا الجزء المهم في هذه القارة الأفريقية لها دورها الريادي في هذه العلاقة وذلك لأسباب عدة، منها موقعها الجغرافي، وكثرة السكان والثروة الزراعية والمعدنية وغير ذلك!

إن هذا البحث عبارة عن محاولة متواضعة يقوم فيها الباحث بتوضيح الصلة بين نيجيريا عمومًا،وبين ولاية كنوخصوصًا في جانب، وبين اللغة العربية في جانب آخر.

أولا: الإسلام واللغة العربية في شمال نيجيريا:

يذكر غلادنثي أن قيام ولايات الهوسا يرجع تأريخه إلى القرن العاشر الميلادي، وأن العلاقة التجارية بين الأمتين العربية والهوساوية بدأت منذ تلك الفترة، وأن اللغة العربية وضعت قدميها فى المنطقة) بشكل مبدئي(منذ ذلك الحين. وأوضح أن بعض الكلمات العربية دخلت في اللغة المحلية، وخاصة لغة الهوسا بسبب هذه العلاقة.[٢] فمن أمثلة هذه الكلمات الدخيلة في لغة الهوسا أسماء البضائع المستوردة من بلاد العرب كالحرير، والسرج، والزعفران وغيرها. ومن ذلك أيضاً ألفاظ العقود من الأعداد) من عشرين إلى تسعين. (كما انتشرت بين الهوساوين كلمات عربية لا غنى لهم عنها في تجارتهم، كالأمانة والغش وغيرهما من الكلمات العربية التي شاعت على ألسنتهم. ومن ذلك أيضاً أسماء الأيام. وعن طريق هؤلاء التجار العرب دخل الإسلام إلى الأراضي الهوساوية بشكل سلمي. وبما أن الإسلام دين يدعوالى العلم والمعرفة بدأ القوم يتعلّمون اللغة العربية بقدر ما يقيمون به شعائر دينهم، فكان ذلك نقطة البداية للتعلم عند الهوساويين، واستمرت الحال والثقافة العربية الإسلامية تزداد رواجاً، وأخذ العلم ينتشر بين الشعب تدريجياً حتى قيام الجهاد الفودوي على يد المجدد الكبير، الشيخ عثمان بن فودي، وحينئذ نبغ في العلم واللغة جم غفير من أبناء هذا القطر. نذكر منهم على سبيل المثال العلامة السوداني، العالم الفقيه، والأديب الأريب والشاعر المفلق، والمفسّر المتقن، الشيخ عبد الله بن محمد الفودي الذي كان بحراً في كل الفنون العلمية الموجودة في عصره، إذ لم يكن في عهده فن من فنون العلم والمعرفة إلا وقرع بابه وولج فيه. وجملة القول: إن الشيخ عبد الله بن فودي كان كما قال القائل:

فالنحل لما جنت من كل فاكهة
أتت بالجوهرين الشمع والعسلا
فالشمع نور مضئ يستضاء به
والعسل يبرئ الأسقام والعللا

ولقد ساعدت في تطور حركة الثقافة

العربية الإسلامية في بلاد الهوسا آنذاك عدة عوامل، منها:

١- وفود جماعة من العلماء أمثال الشيخ المغيلي وغيره.

٢- ومنها أيضاً ورود بعض الكتب العلمية واللغويةة من الدول العربية والإسلامية.

٣- ومنها السفر إلى الحج حيث اتصل أولائك الحجاج في طريقهم إلى الأراضي المقدّسة بشيوخ الأزهر الشريف وعلماء السودان وغيرهم من العلماء فاستفادوا كثيرا من العلوم[٣]

٤- وفوق ذلك كله الجهاد العثماني الذي أقام حكومة مبنية على أساس الدين والعلم.

كل ذلك قام بدور هائل في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية في بلاد الهوسا عمومًا.

أما إمارة كنوفأغلب الظن أن الإسلام دخل إليها في النصف الأول من القرن الميلادي الخامس عشرة عن طريق وفد من الونغراويين[٤]، وكان انتشار الإسلام هوالسبب الرئيسي لانتشار اللغة العربية فيها، إذ إن استعمال العربية قبل إقبال الشعب على الإسلام كان محدودًا جدًا (كان ذلك في أسماء البضائع وبعض الأعداد وبعض الكلمات الأخرى اللازمة). ولما اعتنق الشعب الدين الإسلامي ازداد نفوذ اللغة العربية، وبدأ الناس يتعلمونها بقدر ما يقيمون به شعائر دينهم كما سبق.

ولما قامت الدولة الفودوية تحت قيادة المصلح والمجدد الكبير، الشيخ عثمان بن محمد الفودوي صارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية بين الأمراء والحكام، وهي لغة التحصيل العلمي، واستمرت حالها على ذلك حتى سقوط الدولة على يد المستعمرين الذين استبدلوها بلغتهم.

ثانيا: اللغة العربية في كنوقبل الاستعمار البريطاني:

أما اللغة العربية في إمارة كنوفشأنها كما هوفي سوكتو، العاصمة الفودوية، لأن إمارة كنوتابعة لمملكة سوكتو، وجميع أمرائها مسئولون من قِبَل الحكام في تلك العاصمة الفودوية، ومن ثمَّ كان لزامًا أن يكون حالها كما كان في سوكتووسائر الممالك التابعة لها. فاللغة العربية هي لغة الثقافة وهي لغة الحكومة في الدواوين وفي المحاكم، وظلت حالها كذلك قرنا كاملاحتى جاء المستعمرون وحاولوا إزاحتها بكل ما لديهم من الإمكانيات [٥]، لكن الله سبحانه تكفل حفظها وضمن لها البقاء " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"[٦]

ثالثا: الاستعمار الإنجليزي ومحاولة محواللغة العربية:

وقع ما يعرف اليوم بشمال نيجيريا (ممالك الهوسا والبرنوقديماً) في شبكة المستعمين عام ١٩٠٣م [٧]، ويمكن القول بأن هؤلاء المستعمرين توغَّلوا في البلاد ووجدوا اللغة العربية قد بلغت أوج كمالها في المنطقة، ولا يكون الباحث مبالغًا إن قال بأنهم وصلوا إلى المنطقة والحال أن اللغة العربية في عصرها الذهبي!

ولما استقرَّ لهم الأمر شرعوا في البحث عن الوسائل التي يتوسلون بها إلى القضاء على اللغة العربية وإزاحتها من حيِّز الوجود، فاتبعوا في ذلك الخطوات الآتية:

١. بعث الإرساليات التنبشيرية المسيحية لنشر العقيدة المسيحية والتعليم الإنجليزي.

٢. تأسيس المدارس التبشيرية وتدعيمها بكل ما هوممكن.

٣. إسناد الحركة التعليمية إلى رجال الكنائس.

٤. محاولة إرغام المسلمين على إدخال أبنائهم في تلك المدارس.

٥. إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية التي كانت من قبل هي اللغة الرسمية.

هذه هي بعض التخطيطات التي خططوها للقضاء على اللغة العربية، وهذا هودأبهم ومراسهم، وتلك هي طبيعتهم! "إنهم إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزَّة أهلها أذلَّة، وكذلك يفعلون [٨]

غير أن الشعب كان مصرًّا على الاحتفاظ بعربيته وهويته التي هي الثقافة العربية والإسلامية! فلما رأى المستعمرون أن معامرتهم هذه قد باءت بالفشل لجأوا إلى حيلة أخرى، وهي إدخال بعض المواد العربية والإسلامية في المنهج المدروس في المدارس الحكومية التابعة لنظامهم، لكن الشعب رفض ذلك أيضا، الأمر الذي أدى إلى إنشاء مدارس إسلامية نظامية لتعليم أبناء هذا الشعب المسلم وإن كانت هذه المدارس هي الأخرى لم تسلم من دسائس دسها المستعمرون لتعرقل مسير هذه المدرس نحوالنتيجة المرجُوَّة!

فمن بين هذه الدسائس ما يأتي:

١- توظيف المدرسين غير مؤهَّلين تأهيلاً تربويًّا لتدريس الأطفال اللغة العربية

والدراسات الإسلامية، مما أدى إلى وجود خلل في التحصيل المعرفي.

٢- تفضيل المتعلمين في المدارس الإنجليزية على المتعلمين في المدارس العربية الإسلامية.

٣-إتاحة أكبر عدد من فرص العمل أوالتوظيف للمثقَّفين بالثقافة الغربية.

يقول العلامة الإلوري مشيرًا إلى هذه النقطة:

"الطالب المنتهي من المرحلة الثانوية والجامعية يقنحم كل عقبة، ويتحمل كل مشقة للتعمق في العربية والإسلام ثم يتخرج وهوكَلٌّ على مولاه، لا يجني شيئا من وراء المتاعب التي عاناها، والصعوبات التي ذللها، والليالي التي أسهرها، والجهود التي بذلها وهوقد قاسى أضعاف ما يقاسيه الطالب الإنجليزي أوالفرنسي قبل أن يتخرج، ثم لا يجد ما يضمن له المعيشة الضرورية، ولا يشرئب إلى وظيفة أومكانة تصبوا إليها الأنفس [٩]

رابعا: اللغة العربية والسياسة التعليمية في ولاية كنوبعد الاستقلال:

وعلى الرغم من هذه المكايد التي خطَّطها المستعمرون ضدَّ ابنة عدنان في نيجيريا عموما وفي الشمال خصوصا، فقد هيَّأ الله لهذه اللغة الميمونة أن تنجب عددًا غير قليل من العباقرة الذين قدَّموا للعربية وعلومها خدمة مرموقة، وطارت شهرتهم فيها في مشارق الأرض ومغاربها. نذكر على سبيل المثال:

١- المرحوم الدكتور علي أبوبكر، صاحب كتاب "الثقافة العربية في نيجيريا"

٢- الأستاذ الدكتور شيخوأحمد سعيد غلادنثي، صاحب كتاب " حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا "

٣- المرحوم الشيخ آدم عبد الله الإلوري، صاحب التواليف، وغيرهم من أبناء الثقافة العربية الذين احتلوا فيها مكانة مرموقة، والذين يشار إليهم بالبنان في داخل البلاد وفي خارجها! هذا فضلاً عن أن اللغة العربية كانت ولا تزال تدرس في جميع المراحل التعليمية في نيجيريا، ولا يزال التعليم العربي باقيا في البلاد فلله الحمد والمنَّة!

أما ولاية كنو فحدّث عن سياستها التعليمية بما شئت! لأن المدينة (كنو) هي القائمة بالدور الريادي في مجال التعليم العربي، ففيها ما لا يقل عن مائتي مدرسة ثانوية، كلها للدرسات العربية والإسلامية، وكلها تابعة للحكومة. وإن عدد المدارس العربية الأهلية (الابتدائية والإعدادية والثانوية) يجاوز العدد المذكور سابقا بكثير! كما أن في الولاية جامعتين وما لا يقل عن سبع كليات فيها أقسام للغة العربية.

كما أن عدد المتخصصين في اللغة العربية (دكاترة وبرافسة وحاملي الباكلوريوس فما دونها) عدد لا يعرف حقيقته إلا الله. وجملة القول، إن اللغة العربية هي هوية أهل كنوشعبًا وحكومةً، وإنها رغم الدسائس والمكايد التي خطّطها المستعمرون ضدها، والتي استمرَّ عليها عملاؤهم من بعدهم فإنها احتفظت بشرفها الذي أودعها الله إياه فباع العدواللدود بالفشل. نعم، إن اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية في الدولة، ولكنَّ ذلك لم يمنع لغتنا العربية من أن تجد قبولاً فائقاً ورواجًا مذهلاً من قبل الشعب! فقد أصبح إقبال الناس عليها يزداد بشكل يومي، " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحفظون "

هذا هوواقع التعليم العربي في نيجيريا عموما، وفي كنوخصوصا، بيد أن اللغة العربية لا تزال – حتى اليوم – تعاني من عقبات وعراقيل عويصة، ظلَّت تعرقل مسيرتها نحومجدها اللائق، وذلك لأن الاستعمار الغاشم عمل ولا يزال يعمل جاهدًا في إحطاط منزلتها الرفيعة والتقليل من شأنها. ويبدوبعض هذه العقبات سياسيًّا، وبعضها الآخر عصبيًّا ؛ ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

١- قلة عدد الطلاب الذين يُقبَلون في الجامعات والكليات: فبالرغم من الجمّ الغفير من الطلاب الذين يتخرجون في المدارس الثانوية العربية فإن نسبية من يجدون فرصة الالتحاق بالجامعات والكليات منهم ضئيلة جدًّا، بحيث لا تبلغ ولوواحدًا في المائة. ففي الجامعة التي ينتمي إليها الباحث (وهي يافعة، لها من العمر خمس سنوات) مثلا، يبلغ عدد الذين قدموا طلبات للقبول فيها (١٧١) وكلهم يستحقون القبول، ولكن عدد المقبولين لا يجاوز (٣٢) طالبا، والسبب في ذلك هوالسياسة التعليمية التي فرضت على الكليات والجامعات أن تكون النسبة المائوية للطلاب المقبولين فيها (٦٠٪) للعلوم فقط، و(٤٠٪) للآداب والعلوم الاجتماعية. هذا – بدون أدنى شكٍّ يهدّد مستقبل هذه اللغة المباركة في هذه الربوع الميمونة.

ولم تكن هذه المشكلة قاصرة على

جامعة يوسف ميتما سلي فقط، بل إن بلواها تعم جميع الجامعات، والمعاهد العليا في الدولة.

٢- فرض بعض الشروط الصعبة على الطلاب لكي يجدوا القبول في هذه الجامعات والكليات. من ذلك ضرورية إجادة المادتين: الإنجليزية والرياضيات، ولوكانت المادة التي يريد الطالب دراستها هي اللغة العربية.

٣- قلة عدد الحصص التي تدرس فيها المواد العربية وذلك مع كون هذه المدارس مخصصة للدراسات العربية والإسلامية.

٤- جعل مواد اللغة العربية في المدارس غير العربية موادا اختيارية بعد أن كانت إجبارية من قبل.

٥- السلوك السلبي (خصوصا من قبل الحكومة السابقة) تجاه اللغة العربية. فقد كشَّرت تلك الحكومة أنيابها على اللغة العربية وكل ما يمت إليها بحبل الصلة ؛ وحجتهم في ذلك أن نيجيريا دولة علمانية (على حد تعبيرهم)،لا علاقة لها بالدين، وبلغ بهم هذا العداء إلى درجة أنهم أزاحوا حتى الرموز التي كانت على صفحات العملة النيجيرية رغم أنها كانت هنالك منذ عهد الاستعمار.

٦ – تقليص الفرص التوظيفية أمام المتخصصين في اللغة العربية وجعلها قاصرة على التدريس في المدارس العربية والإسلامية، وفي المحاكم الشرعية.

٧-عدم التمويل الكافي للمدارس عموما وللأقسام العربية في الكليات والجامعات خصوصا.

تلك هي العقبات التي تعرقل مسيرة اللغة العربية وتحاول حصرها والحلول بينها وبين ما يليق بها من المقام! ولم تكن اللغة العربية تقاسي هذه الويلات بأيدي المستعمرين وعملائهم على أساس أنها لغة العرب، بل لكونها لغة الإسلام والقرآن، وإلاّ فلم لم تواجه اللغة الفرنسية مثل هذه العراقيل ؟

ذلك هوالصراع الذي دار ولا يزال دائرًا بين الإسلام ولغته وثقافته في جانب، وبين الاستعمار وسياسته في جانب آخر، ولا تزال هذه السياسة الاستعمارية إلى يومنا هذا تهدّد لغة الضاد، وتعمل جاهدةً لقمعها وإدراجها في كومة النسيان، ولكنَّ الله أبى إلا أن يُتمَّ نوره ولوكره المجرمون!!!

اقتراحات:

وقبل الختام يتوجه الباحث إلى من يهمهم أمر هذه اللغة خصوصا، وأمر التربية والتعليم عموما أن يتفضلوا بالآتي:

١. إشباع رغبات الطلاب المتخرِّجين في المدارس الثانوية، والذين يرغبون في الالتحاق بالجامعات والكليات، ولكن الفرص محدودة جدا.

٢. تخفيف الشروط الغير اللازمة في شأن من يرغبون في الدراسات العربية، إذ ليس هناك مبرّر يجعل إجادة اللغة الإنجليزية ومادَّة الرياضة ضمن شروط القبول لمن يدرس العربية.

٣. إعادة النظر في المنهج المقرر في مدارسنا العربية وغير العربية، فإن فيه جورا على أبناء اللغة العربية وثقافتها في هذه البلاد، فنصيب العربية من الحصص ضئيل جدًّا قياسًا إلى المواد الأخرى غير العربية.

٤. التسوية بين طلبة اللغة العربية والثقافة الإسلامية وبين أبناء الثقافات الأخرى في فرص التوظيف وغيرها.

٥. فتح المجال أمام طلبة اللغة العربية لكي يدرسوا المواد الأخرى في اللغة العربية، وذلك مثل الطب، والصيدلة والهندسة والقانون وغيرها، فإن العربية جديرة بذلك ولها من المرونة ما يجعلها أهلاً له!

٦. يقول شاعر النيل[١٠] على لسان حالها وما أروع قوله في هذا المقام:!

وسعت كتاب الله لفظًا وغـــايةً
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيـــــق أسماء لمختـرعـات
أنا البحر في أحشائي الدر كامنٌ
فهل سألوا الغوَّاص عن صدفـاتي

هذه هي بعض الاقتراحات التي يوجِّهها الباحث إلى معشر القوّامين على أمور اللغة العربية لعلها تجد آذانًا صاغية! وتلك هي نداءاته فهل من ملبٍّ!! وإليكم يا كرام القوم أقصد بهذا الطلب وأقول كما قال شاعر النيل على لسان لغتنا المفدّاة:

إلى معشر الكتّاب والجمع حافلٌ
رفعت رجائي بعد بسط شكاتـــي
فإما حياة تبعث الميت في البلى
وتُنبتُ في تلك الرموس رفـــاتـــي
وإمّا مَمـــاتٌ لا قيـــامَةَ بَعدَهُ
ممـــاتٌ لَعَمْرِي لمْ يُقَسْ بممـــاتِ

الخاتمة:

اتضح مما تقدم أن اللغة العربية في كنوعريقة جدًّا، يرجع تأريخ دخولها في المنطقة إلى أمدٍ بعيدٍ، وأن الأهل أقبلوا

عليها بكل شغف، واعتنقوها على أساس أنها لغة الدين والدولة، وظلت تتمتع بهذا النفوذ ما يربوعلى قرن قبل مجئ الاستعمار البغيض الذي سلبها رسميَّتها في البلاد، بل أراد دسَّها في التراب، ولكنَّ الله سلَّم! وتبين كذلك أن المحاولات التي قام بها المستعمرون للقضاء على اللغة العربية قد خسرت وباءت بالفشل وأن ذلك تم بفضل الله أوَّلاً وقبل كل شيء، ثم بفضل الصمود والإصرار الذي قام به الشعب في الذود عن عقيدتهم وهويتهم، الأمر الذي كسَّر شوكة الأعداء وكلَّل همتهم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كما اشتمل البحث على بعض العقبات والمشاكل التي تشكِّل خطرا على مستقبل بنت عدنان، وأخيرا على بعض الحلول التي يراها الباحث نافعة في صون هذه اللغة المباركة من تلاعبات المستعمرين والذود عن شرفها وكرامتها، والحمد لله بدءً وختمًا.

الهوامش والمصادر:

[١] المكتبة العصرية بيروت لبنان، ١٩٨٧م، ص:١- ١٣ صابر محيي الدين، (الدكتور)،العرب وإفريقيا، العلاقات الثقافية، ط/١،

[٢] ط/ ٢، ١٩٩٣م، ص:١٨-١٩ شيخوأحمد سعيد غلادنثي (الدكتور)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا

[٣] غلادنثي، المرجع السابق، ص:٦٢

[٤] غلادنثي، المرجع السابق نفسه، ص:٤٠

[٥] محمد الثاني خامس درما، (الدكتور)،الرسائل العربية في بلاد الهوسا في القرن التاسع عشر، بينتش مارك، كنو،٢٠٠٤ م، ص:(٥)

[٦] سورة الحجر: الآية: ٩

[٧] غلادنثي، المرجع السابق، ص: ٧٥

[٨] سورة النمل: الآية: ٣٤

[٩] ص:١٥٠ الإلوري آدم عبد الله، نظام التعليم العربي وتأريخه في العالم الإسلامي، دارالعربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط/٣،

محمد حافظ إبراهيم، شاعر مصري، من شعراء العصر الحديث.